الخائن

قصة بقلم نديم خشفه

البارحة كبسوا المقمرة . والآن يرجمهم الاولاد بالحجارة . أقل شيء يسنأهله الشرطي : الرجم .

فل « نوري » أصابعه عن قضبان النافذة ، والتفت يتأمل الحجرة، ثم زفر وجلس على المقعد . وقبل ان يشعل السيكارة فتح الباب ، ودخل رجل معه محفظة سوداء .

بقيت السيكارة لاصقة بين شفتيه ، ويده في جيبه تبحث عن القداحة ، ولم يجدها .. أفرغوا جيوبه قبل ان يدخل .

وقف الرجل هادئا . وأول شيء فعله : نزع نظارته عن عينيه ، وطواها . ثم وضعها في جيبه . مشى خطوتين ، فأفسح له نوري مكانا على المقعد . فجلس وحط المحفظة على ركبتيه .

أخرج من جيبه قداحة فأشعل سيكارة ، ثم رأى نوري فاعتذر ، وأشعل له سيكارته . قال نوري :

ـ الاولاد يرجمون الشرطة .

فهمس الرجل :

ـ مظاهرة .

وكان صوته خشنا ، لا يلائم وجهه اللطيف . وسأله نوري :

ـ وقفوك لانك منهم ؟

ـ لا .. لست منهم .

ـ وانا أيضا .. لست منهم . وقفوني ظلما وعدوانا .

وتمهل يرى أثر كلمته على الرجل .. ثم اضاف :

ـ كنا سهرانين . شلة شباب نلعب الورق ومعنا بنات .

كبسوا البيت ووقفوني .

ـ وحدك ؟

ـ حظي ملعون . كنت اتفرج على اللعب ، واشرب من وقت لآخر . اصحابي ضربوا الرصاص وهربوا مع البنات . أنا رأسي خفيف لا يحتمل الشراب .. سكرت من ثاني او ثالث كأس . حظي ملعون .

فواساه الرجل بصوته الخشن :

ـ المسألة بسيطة . اذا لم يثبت عليك ضرب الرصاص .. جنحة بسيطة .

نظر الى المحفظة على ركبتيه :

ـ أنت محام ؟

قلبت الرجل قبل ان يجيب :

ـ اشتغل في النقابة .

ـ ووقفوك لانك من النقابة ؟!

سحب الرجل من سيكارته وامال رأسه ، ونفخ الدخان الى اعلى. وسحرت حركته نوري ، فعزم ان يفعل مثله بعد قليل . وبدا على الرجل انه يغالب رغبته في الحديث . فاستدرجه نوري :

ـ وقفوك ظلما . مثلي تماما !!

ـ ما وقفوني .. أنا جئت من نفسي .

ـ سلمت نفسك للشرطة ؟! لو كنت بدلك ...

وعض على اضراسه فانقطعت الجملة في فمه . وتذكر انهم ما افرغوا جيوب الرجل قبل ان يصفعوه الى الداخل . بل .. هم لم يصفعوه ولا دفعوه . دخل برفق واغلق وراءه الباب . وهذه المحفظة . وتلك النظارة . وقميصه الابيض !! اولاد الحرام .. دسوا هذا ليستدرجني ؟؟ وقبض على المقعد براحتيه ، يقاوم رغبة شديدة تدفعه لان ينهض ، فيلعن دينه بضربتين .

ضاقت عيناه من القهر ، وتربص أن يفعل الرجل شيئا ، ان يضحك هازئا . ان يهرب . أن يسحب من جيبه مسدسا ويتراجع الى الوراء ، ويده تتلمس مقبض الباب .. لكن الرجل بقي جالسا يدخن . ثم قال بعد صمت :

ـ الشرطة وقفوا بعض رفاقنا . والاعضاء شكوا في . ظنوا اني وشيت بهم . أطلقوا عليّ الرصاص البارحة ، واخطأوني .

وسأل نوري بحذر :

ـ أطلقوا عليك الرصاص ؟

ـ لم يتركوا لي فرصة لاعرف الخائن ..

وبصوت أهدأ سأله :

ـ تشتغل بالسياسة ؟

وكأن الرجل يحدث نفسه ، فلم يهتم بسؤاله :

ـ .. الذي وشى بهم يريد ان يقتلني ، ليبقى بريئا بعدي .

ـ وما عرفته ؟

نهض وهو يقول بصوت مرتجف ، انفصل عنه كأنه طلاء يتقشر عن حائط :

ـ قلت لك : ما تركوا لي الفرصة .. البارحة أطلقوا عليّ الرصاص .

فهم نوري . فأرخى يديه عن المقعد ، وفكر :

الجبان !! يخاف ان يمشي وحده في الطريق . التجأ الى الشرطة ليحموه .

وسأله بصوت متهانف :

ـ ستبقى في المخفر دائما ؟

ـ لا .. سأختفي مدة حتى اتفاهم معهم .عندي اصحاب سأختفي عندهم .

جلس وفتح المحفظة ، فأخرج منها اوراقا . ثم وضع نظارته وجعل يقرأ ويؤشر بقلم رصاص . وقف نوري ينظر من النافذة . قال دون ان يلتفت :

ـ الاولاد يرجمون الشرطة .

ولم يجبه الرجل . كان يقرأ ويؤشر بقلم رصاص .

تأمل قمة رأسه :

شعره التوى الى جانب واحد . وجمد عليه معجون ابيض .. بل شعرات بيض اندست في شعره الاسود .

ورأى انه اقوى منه . يأسره بنظراته . تنظر عيناه قمة رأسه ، وطرف اذنيه ، وعنقه النحيل المائل الى امام . واحس بعطف عليه :

ضعيف ، مشغول بهمومه . ماذا يكتب ؟ لو كنت اعرف الكتابة لتحكمت فيه اكثر . لكن ما الفائدة من القراءة والكتابة ؟ هذا رجل قرأ كثيرا وهو الآن يكتب . ثم .. جرى الى المخفر كالفأر ، يخشى ان يطلقوا عليه الرصاص . بعد قليل سيخرج يرافقه شرطي سمين ، الى بيت أصحابه . وربما صافحه قبل ان يغلق وراءه الباب .

هذا زائر وانا سجين . بل ما يزال امامي طريق ملعون .. الى السجن . سيكون ذلك كالمرات السابقة :

صفعات من يد الرقيب الغليظة ، اثناء التحقيق . من السجن الى المحكمة في سيارة مغلقة . انتظار في المحكمة حتى يأتي القاضي .

تأجيل المحاكمة . من المحكمة الى السجن في سيارة مغلقة . أمي تزور السجن وتصرخ من وراء الشبك : الله يغضب عليك يا نوري .. وتبكي. المحكمة . الشهود . محام رخيص الاجر ، يخسر الدعوى .

ثم .. النوم اثني عشر شهرا على فرد جنب .

انا الذي اعرف أصول عشرة الشباب ، انا في السجن . وهذا .. هذا الفأر ، يخرج في حماية شرطي !!

أنظر اليه منكبا على أوراقه ، اذناه الى امام ، ونظارته على ارنبة أنفه !! .. انه فأر .

ماذا يخسرون لو تركوني ؟!

الشباب ـ لا شك ، بدلوا مكان لعبهم . أظنهم اجتمعوا اليوم عند « أم انطون » . قلت لهم عند أم انطون آمن فما صدقوا ، حتى كبستنا الشرطة . هم اليوم عندها . سيذكرونني بالخير . سيشربون في صحتي . لكن سينسون .. سينسون نوري ، عند اول دور من اللعب .. العكاريت !!

... لو تركوني !!

سأخل على الشباب واصرخ فيهم . لا .. لن أصرخ . الاحسن ان ازلزل عليهم الباب . واخشن صوتي : « افتحوا البـاب ، ويلكم .. الشرطة ! » . ستبكي أم انطون : « ضعنا هذه المرة » وتهرب البنات . ويقف الشباب في زوايا البيت ، وبيد كل واحد مسدس . مزحة خطرة . واتركهم مدة ، يرجفون مثل الارانب .. وادخل بعدها . مقلب!! لن يتركوني . اعرفهم .. مثل الكلاب اذا عضوا على عظم . ماذا في ذلك ؟

يعني .. شباب يلعبون ومعهم بنات من جيلهم . سكروا وضربوا الرصاص . اطبقت السماء على الارض !!

ماذا يريدون ان نفعل ؟

هل نجلس ساعات ، ايدينا على ركبنا ، وعلى انوفنا نظارة ، نقلب الاوراق .. حتى نموت من السأم ؟! خذ . هذه هي النتيجة :

فأر خائف ، يركض من مخفر الى مخفر يطلب الحماية .. تفه !

كان الرجل قد جمع الاوراق في المحفظة ، وجلس محني الظهر ، يداه على ركبتيه ، ورأسه تدلى الى امام ، وجفناه انسحبا فوق عينيه. مرهق يغالب النعاس .

مشى نوري الى الباب فأنصت ، ثم عاد بخطوات القط ، الى مكانه فوق المقعد . اغفى الرجل . وقبل ان يرفع رأسه ، ضربه على عنقه بقبضة يده . وأعاد ضربته مرات . فانكب على وجهه ، ولم يلفظ حرفا .

حدق فيه دهشا ، ثم حمله فألقاه على المقعد ، ونزع عنه القميص الابيض . فلبسه وعقد ربطة العنق فوقه . ولبس السترة ، وامسك بيده المحفظة . وتأمل نفسه قليلا .. حذاؤه مهتريء . فأبدله بحذاء الرجل . كان ضيقا فلعن ، ولم يشد الشريط الى نهايته . أوسد الرجل على المقعد ، وادار وجهه الى الحائط . ورمى سترته عليه ، ودس الحذاء في قدميه .. وجلس ينتظر .

كان خائفا : لكن سنة سجن ليست قليلة .

ولو عرفوه ؟ ليكن .. الذي ينام سنة ، ينام سنة واربعة اشهر . انتظر .

اذا جاءوا فكيف اخرج ؟ سأخرج بخطوات واثقة مثله .

لكن .. هل خطواته واثقة ؟ هذا الاهمال اللعين !! لم لا اهتم بمراقبة الناس ؟ وما ادراني كيف يمشي ؟! لم أره يمشي . اندس هكذا كالفأر . لا بأس .. الملابس تكفي .

واحس نفسه غريبا في هذه الثياب . وداخله ضيق كمن يلبس ثياب ميت . وسال من ابطيه ماء . ونشق رائحة السترة ، رائحة رجل آخر . رائحة منحازة الى الغريب .

دس يديه في جيبه .. فتات من التبغ وزغب قماش ، ومنديل مطوي ، لم يجرؤ على فتحه . سيكون لاصقا ولن يقاوم الغثيان . فأغمض عينيه وقرض اضراسه . وشعر لاول مرة بثقل الزمن .

الرجل معه ساعة ؟ حتما معه ساعة .

الآن .. عليه ان يذهب مرة اخرى ، الى الرجل ويلمس جسده ، وفكر ان يترك الساعة . وهون من شأنها، ثم وجدها هامة ـ فكل الاكابر، رجال السياسة .. معهم ساعات . أنفتل بقوة اليه ، وفك الساعة من معصمه . وتجرأ .. فلمس نبضه .

هل قتلته ؟

غلب قرفه ، وتأنى في لمس المعصم : نبض ضعيف ، فزفر هانئا ، وقد رد اليه بعض نشاطه .

وقف امام الباب بقميص ابيض ، وربطة عنق مشدودة ، يده ـ التي على معصمها ساعة ـ تمسك المحفظة . وقدماه داخل حذاء ، حبس الدم في أصابعه .

سمع خطوات .. فوضع النظارة على عينيه : أبتعد عنه الجدار وحاصرته دوائر الزجاج . وقبل ان يرفعها .. فتح الباب ، واشار له شرطي برأسه ، فخرج .

امام الدرج ، يتحادث الشرطي مع شاب في ثياب مدنية ، لكن ربطة عنقه لونها كاكي . فأدرك نوري انه شرطي آخر . ودنا منه الشاب وسأله ان يرافقه الى السيارة .. سيارة جيب ، غطاؤها قماش خاكي : هذا اللون خائن ، لا يمكن أن يوثق به . يجب ان تصبر ، مع ذلك . سيسألك الآن عن بيت أصحابك .

وهيأ نوري في ذهنه الجواب . سيختار شارع « القصور » شارع يتصلب الشرطي احتراما حين يسمعه : القصور ! وهو قريب من الحارات المتعرجة . حتى لو انتبه اليه ، فلن يدركه بسيارته القبيحة، ذات الغطاء الخاكي .

لم يسأله الشاب عن شيء . وظل يسوق بسرعة متأنية ، وهو يراقب الشارع . وحين تخلص من زحمة السير ، غير الى السرعة الرابعة .. وانطلقت السيارة في شارع بيروت العريض .

اراد ان يقترح عليه شارع القصور ، لكن خشي ان يبدأ الحديث. فآثر أن يسكت ، وتلهى بالنظر الى ضفة النهر . ولمح اولادا يصيدون. الماء قليل . فماذا يصيدون ؟ ربما .. الضفادع .

الآن وصلوا الى الضاحية . مداخن معمل الاسمنت تنفث في السماء غيوما كثيفة ، لها رائحة الكبريت المحترق . وبحث عن كلمة يبدأ بها ، فقال :

ـ الرائحة .. افسدت الهواء .

لم يقل الشاب شيئا ، واومأ برأسه : نعم .

وابتلع نوري بقية الحديث . من الصباح لم يأكل شيئا ، وهو يدخن سيكارة فوق سيكارة . امسك علبة الدخان ، وفكر :

هل اعرض عليه سيكارة ؟

لن اعرض عليه . لن اهتم به .. أحسن .

أشعلها وسحب نفسا ، وامال رأسه ، ونفخ الدخان الى اعلى .. كما رأى الرجل يفعل . وارتاح لحركته هذه ، فأخرج النظارة وحطها على عينيه . وصبر على زوغان بصره .. يجب ان يصبر .

تركت السيارة الطريق المعبد ، وانحرفت الى درب ترابي . وضع الشاب نظارة شمس وقارب حاجبيه . واهتزت النوابض تحت نوري ، فاستمسك بالمقعد وسأل :

ـ أين نحن ؟

وانعطفت السيارة دون ان تخفف من سرعتها ، فأثارت غبارا ونثرت حصى . ثم دخلت بستانا زرعت فيه اشجار حور ، على مجرى الماء . ووقفت امام باب خشبي كبير . نزل الشاب قبله ، واشار بيده :

ـ من هنا !

مشيا على ممر رصف بالحصى ، وأطل رأسان من النافذة . وتريث الشاب قليلا . ثم فتح الباب .. فقال له :

ـ ادخل !

وقف نوري وسط الغرفة لا يدري ما يفعل بيديه . فمسح كفه بصدره ، ونقل المحفظة الى اليد الاخرى . وأحس بأصابعه تحترق داخل

حذائه . ووجد صعوبة في الوقوف ، فجلس على كرسي دون ان يدعوه احد . رأى الشاب يحادث الرجلين ، ثم صافحهما . وربت احدهما على كتفه ، وهو يرافقه الى الباب .

قال له الاول : ـ تعبان ؟

ـ منذ الصباح وانا واقف . ارجو الا نتأخر هنا .. اريد ان ارجع للبيت ، لاغير الحذاء .

وضحك الآخر : ـ مستعجل ؟.. لن تتأخر طبعا .

ولم تعجب نوري ضحكته . كانت صفراوية تنم عن الكراهية . فشمله احساس بالوحشة . ولم يجد نفسه بين أصدقاء : ربما كان واهما . ونزع النظارة . لكن وجه الرجل لم تفارقه تلك الملامح المكتئبة كأنه يشكو مفصلا .

وقفا صامتين . ورن جرس في مكان ما من الغرفة .

دهش نوري . فالحجرة بائسة الاثاث ، ولم يتوقع ان يكون فيها هاتف . وأنصت الاول مدة ، ثم قال :

ـ نعم . سيدي !

وحط السماعة . جاء اليه فثنى ذراعه وراءه ، وفتشه بيد سريعة ، ثم دفعه الى كرسيه . وقرب الاخر طاولة ، حتى لاصق طرفها صدر نوري . وجذبا كرسيين ، وجلسا قبالته . وفكر :

هكذا اذن !!

قال الاول ، وامسك دفترا وقلما :

ـ الان .. سنعطينا اسماء الذين تعاونوا معك جميعا ..

لا تحاول ان تنسى احدا !

ورأى نوري يتلكأ فأضاف :

ـ .. ولا تستعمل ذكاءك . كل الحيل مرت علينا .

وغضب نوري لهذه اللهجة التي بدأها معه ، فقال :

ـ ولكني لا أعرفكما .

ـ هذا أحسن . الذي لا تعرفه خير من الذي تعرفت عليه .

بدا واضحا لنوري الان ، أنه يهزأ به .

وشعر كأنه لاعب « بوكر » خسر الدق ، فلم يجد بدا من أن يكشف أوراقه . وأدركه يأس مع ذلك . فقال بصوت منهزم :

ـ أنا لست هو .

ولم يفهم معنى ذلك الغضب الذي ركب الرجل فجأة ، فضرب بقبضته الطاولة وصرخ فيه :

ـ قلت لك .. لا تكذب علينا !

وأوضح له الاخر :

ـ حين رأيت أننا لا نعرفك من قبل .. حاولت ان تنفذ من هذا الباب .

كان صوته عطوفا ومقنعا . لكن نوري اضاف باصرار طفل عنيد :

عنيد :

ـ قلت لك : أنالست صاحبكم الذي يشتغل بالسياسة .

ـ من أنت اذن ؟

والسؤال فيه نبرة واضحة السخرية :

ـ أنا نوري أ..أ..

ومد يده الى جيب السترة . ثم توقف : أوراق الرجل الاخر !!

الاحساس الغامض بالخطر ، توضح أمامه مثل ضوء الشمس .

ورأى قدره في العيون الاربع المحدقة فيه بكراهية ، رمت ثقلها على وجهه ، فأسدل جفنيه . من حنجرته الى قصبة أنفه ارتفعت شرارة ، فانسكب الدمع من زاويتي عينيه ، ورطب خديه الملتهبين .

جذبه الرجل من ياقته ، والصق أنفه بوجهه ، كأنه يريد ان يخترق البؤبؤ بنظراته ، وزفر برائحة كريهة :

ـ ابك مثل القح ... ، لكن ستقر بأسماء الذين تعاونوا معك .

وأطلقه ، فارتطم راسه بمسند الكرسي .

وقال الاخر بصوته الهادىء :

ـ الذين وشيت بهم ما بكوا حين عذبهم اصحابك الشرطة .

ونتر من يده المحفظة ، وناولها لصاحبه . وجدها مقفلة فلم يسأله المفتاح ، بل أخرج سكينا وشقها من فوق ، وأفرغ الاوراق على الطاولة .

نظرا فيها على عجل ، ثم جمعاها . واسرع الاول الى الهاتف فشكل ارقاما ، وتحدث بصوت خفيض .

لم يفهم نوري ما قال . لم يكن يصغي اليه . أذناه يدوي فيهما الدم ، ولسانه خشن مثل قطعة ليف . ولا يفلح في جمع فكره المتناثر . كيف يفكر وقد رأى في عينيهما موته واضحا ؟! ليس بدلة سياسي ، الله يعلم أي جريمة ارتكب : ماذا فعلت لآكل نصيبه ؟!

فاستجمع قواه وهتف :

ـ لست هو . وحق الله لست هو . الاخر نائم في المخفر . ضربته ولبست ..

الرجلان ما أصغيا اليه . لعل صوته لم يتجاوز حنجرته !! ونشفت الماء من حلقه ، وازرقت أصابعه من الخوف .

فدفع الطاولة عنه ، وجرى الى الباب . وقبل ان يبلغه ، انفجرت في عنقه بقعة دم ، وغاص نوري في الظلام .

نديم خشفة

الاشتراكية والمرأة

ريبيد

ترجمة وتقديم

جورج طرابيشي

كيف تواجه الاشتراكية ، بمختلف أشكالها ، مشكلات المرأة ، على اختلاف صورها ؟

هذا هو الموضوع الهام الذي يعالجه هذا الكتاب . وقد تناول موضوعاته عدد من المفكرين والكتاب الاجتماعيين الذين اهتموا بوضع المرأة بصورة عامة ، فكتب ريازانوف عن « الشيوعية والزواج » ولينين عن « المأساة الجنسية » وبابلو عن «الفرويدية والماركسية» وتومسيك عن « مشكلات شرط المرأة الاجتماعي » وفيرا بلشاي عن « المشكلات الراهنة للمرأة السوفياتية » وسيمون دوبوفوار عن « مسيرة المرأة الصينية » وسواهم . كما ان هناك فصلا هاما يسرد رأي لينين في الحب الحر .

كتاب عظيم الاهمية يبين ما حققته المرأة المعاصرة من تطور في ظل الاشتراكية .

دار الآداب ٤٠٠ ق.ل